نوابغ المدرسة المارونية الاولى : ٤

ابراهيم الحاقلي او الحاقلاني (١٥٩٤؟ـ ١٦٦٤)

بقلم الخوري بولس غالب

١

مسقط رأسه — عائلته

قرية من قرى بلاد جبيل ، موقعها في وادٍ يحيط بها من جهاتها الثلاث ؛ اما من الشرق فهي مستندة الى جبل عالٍ تنبت فيه الاشجار الباسقة اعمدة خضراء تشبه اعمدة حنيّة معبد تقوم حاقل في وسطها كانها الهيكل.

تعلو هذه القرية سطح البحر نحوًا من ٧٥٠ مترًا . واقرب القرى اليها بجة وبينهما مسير ساعة الى الشمال الغربي ، ثم ميفوق حيث الدير التاريخي الذي سكنه ردحاً من الزمان بعض بطاركة الطائفة المارونية ، وهو على مسير ساعة ونصف الساعة منها الى الشمال الشرقي . اما لحفد ، موطن الاسقف المؤرخ واللاهوتي الشهير جبرائيل ابن القلاعي ، فلا يبلغها القاصد اليها من حاقل الّا بعد مسير ساعة وثلاثة ارباع الساعة الى الشرق . وعلى مسافة ساعة ونصف الساعة قرية عبادات الواقعة في غربي حاقل.

تربة حاقل جيدة غير ان المساحة الصالحة للزراعة ضيقة.معظم حاصلاتها من الحرير ، والزيتون ، والحنطة ، والخضروات المتوفرة فيها بسبب المياه الغزيرة التي تجري من ينبوعها.

مناخ حاقل جيدٌ ايضاً ، وهواؤها بليل قلّ ان يفشو فيها مرض وبائي ، ولذا يعتمر اهلها طويلًا . وعدد نسمتها اليوم لا يقلّ عن الخمسمائة ؛ والمقصود السكان المقيمون في بلدتهم ، اما المهاجرون فعددهم وافر.

الى هذه القرية تنتسب عائلة علّامتنا الحاقلي — ويدعوه بعضهم الحاقلاني—

الشهير ، الممتاز بين انسبائه الذين خلّفوا ذكرًا طيباً في تاريخ لبنان والطائفة المارونية

وقد جاء في اوراق قديمة ان عائلة الحاقلانيين او الحواقلة فرع من عائلة بيت ابي حبيب التي اختلف البحّاثون في اصلها ، فمنهم من قال انها من العاقورة ومنهم من زعم انها انتت من غلبون . وعلى كلّ فان فرعاً من هذه العائلة توطّن بيت شباب حيث احتفظ باسم الاصل الجامع ابي حبيب ، وقطن فرع آخر زوق مصبح في ايام الامير منصور العساف ، فنال افرادهم شهرة واسعة في العلم والتفوذ لدى حكّام لبنان ، فجعلوهم مشايخ لحسن خدمتهم .

وقد كثر عددهم في الزوق فاصبح فوارسهم اربعين من الرماحة . ووقف بعضهم اوقافاً على الرهبان المبّاد اولاً ، ثم سلّموها الى الرهبانية اللبنانية المارونية ، بعد ان انتظمت امورها ونالت تثبيت الطيب الذكر والاثر ، البطريرك اسطفانوس الدويهي الذائع الصيت . منها وقفهم دير سيدة اللويزة المُنشأ سنة ١٦٨٢ الذي ما عتموا ان سلّموه الى الرهبانية البلدية في سنة ١٧٠٧ ، ووقفهم دير مار يوسف البرج الذي سلّمه الشدياق شاهين الحاقلاني الى الرهبانية نفسها في سنة ١٧٤٦ ، ووقف غيرهما ممتلكاتهم باسرها للرهبانية المذكورة واعتنوا بعمار كنيسة الوردية في زوق مصبح .

نزح قسم منهم الى أرده قرب طرابلس وهم الشيخ لويس ابن غالب واخواه ، وعُرفوا فيها ببيت الحاقلاني . وتوفي الشيخ نوفل الحاقلاني سنة ١٨١٩ عن ولد جاءت به امه الى غزير ، فتزوج فيها ومات بدون عقب . فانقرضت به العائلة الحاقلية في كسروان

وقد حفظ التاريخ اسماء بعض المعروفين من هذه العائلة الكريمة وهم :

القس يعقوب ابن حويص الحاقلاني ، سامسه المطران داود ، وكيل دير قنوبين ، استفاً سنة ١٥٧٧ ، دون ان يسبق فيلم البطريرك مخائيل الرزي ، وكان المطران داود قد انتقض على رئيسه . فكتب المطران يعقوب المذكور سيرة القديس شليطا سنة ١٥٦٣ في وادي حدشيت .

يوسف الحاقلي ، نسخ كتاب « ايضاح الامانة » في قرية بان النابعة جبة بشري

القس يمين ابن سالم الحاقلاني ، كتب في قبرص مصحفاً يحتوي ٣١ تافورة لقداس الموارنة

سنة ١٥٣٥ .

الشماس يوسف الغريب الحاقلاني ، نسخ المقالات العشر لتوما الكفرطابي سنة ١٤٠٣

الشماس عيسى واخوه ، ولدا الخوري يوسف الحاقلي ، نسخا هذه المقالات نفسها في ايام الدوجي

الخوري جرجس بن عبدالله الحاقلاني ، تلميذ المدرسة الرومانية ، سنة ١٦٣٦ وسلم اللاهوت الادبي فيها ، درس عليه هذا العلم عبد الغال اخيجيان الذي صار فيما بعد بطريركاً على السريان الكاثوليك . ثم عاد الى بلاده فرسمه البطريرك يوسف العاقوري قسيساً وارسله الى رومية لقضاء مصالح الطائفة ، وبعد رجوعه سلمت اليه خدمة موارنة القدس فجرى له خصومات مع الفرنسيسكان ، وقضى اجله سنة ١٦٦٩ . وقد ذكره الياس عويضه في زجليته عن تلاميذ المدرسة المارونية

الشدياق سليمان الحاقلاني تلميذ مدرسة رومية ، لم نعرف عنه شيئاً

الشيخ شاهين الحاقلاني الذي عاش بتولاً ، وسلم دير مار يوسف البرج الى الرهبانية اللبنانية في سنة ١٧٤٦

الخوري رزق‌الله الحاقلاني ، خادم زوق مصبح في عهد البطريرك يوسف ضرغام الخازن ، ترى توقيعه على اعمال المجمع اللبناني المنعقد سنة ١٧٣٦

الشيخ سلهب الحاقلاني ، انشأ دير سيدة اللوزة سنة ١٦٨٢ ، وخصصه اولاً بالرهبان الباد ، وترهب فيه ودعي باسم اغناطيوس ، ثم سلمه سنة ١٧٠٧ الى الرهبان اللبنانيين وانضم اليهم . مات سنة ١٧١٤ وله من العمر ثمانون سنة

جرجس حبيب الحاقلاني ، مسجّل بطريركي ورد ذكره في اعمال المجمع اللبناني

الخوري ابراهيم الحاقلاني ، ورد ذكره سنة ١٨٣٥

الحبيس الاخ مارون الحاقلاني ، توفي سنة ١٧٥٦ في محبسة قزحيا براتمة القداسة

الاب يواكيم الحاقلاني ، الذي انتخب رئيساً عاماً على الرهبان اللبنانيين سنة ١٧٦٤

واخيراً المطران رافائيل الحاقلاني ، مطران دمشق ، ولد سنة ١٧١٦ في زوق مصبح ولبس الاسكيم الرهباني في دير مار الياس شويا في ١٤ تموز سنة ١٧٤٠ ، ورقي الى اسقفية دمشق سنة ١٧٥٥ ، وعهد اليه امر تدبير راهبات بكتنا اللبنانيات بعد وفاة المطران يواخاف الدبي البكتناوي سنة ١٧٦٩ . وانتقل الى رحمته تعالى سنة ١٧٨٠

واشهر الجميع ابراهيم الحاقلي الذائع الصيت ، الذي ولد في قرية حاقل واليها انتسب . والمرجّح انه ابصر النور في اواخر القرن السادس عشر . على انني رغم البحث الجدّي المتواصل ، لم اتمكن من معرفة سنة ميلاده بالحصر بل استنتجت من قول البطريرك العلامة الدويهي الذي روى ان الحاقلي مات سنة ١٦٦٤ طاعناً في السن ، ان علامتنا فات السبعين سنة والّا لما صحت عنه عبارة الدويهي

٢

دروسه ومؤلفاته الاولى

وما طال امر الشاب ابراهيم حتى بانت عليه ملامح الذكاء والاجتهاد ، فارسله رؤساؤه الى المدرسة المارونية في رومية المنشأة حديثاً ، التي ما كان يُرسَل اليها الّا من تُوسم فيهم الخير والفائدة للطائفة . وأرجح انه سافر الى المدينة الابدية سنة ١٦٠٩ مع القس جرجس مارون الذي سيم اسقفاً على قبرس سنة ١٦١٤ ، ويوسف الكرمداني ، والقس الياس الدويهي ، الذي سيم اسقفاً على حلب سنة ١٦٣٨ . فانصبّ على العلم وعكف على التقوى وامتاز بعقله الثاقب ، ونال لقب استاذ في الفلسفة واللاهوت . فلحظ رؤساؤه صفاته هذه ، فشطوه بطرق شتى ليزين نفسه بالفضيلة والجد . ولشدّة تفتهم به شهدوا فيه الشهادات الحسنة ، وخصوصاً رئيس المدرسة الاب فابيوس برونو ، رفيق الاب ايروتيموس دنديني في قصادته الى الموارنة . وقد عهد اليه فحص الشحيم قبل طبعه في روميه سنة ١٦٢٢ ، تحت مناظرة الطرباوي الكردينال بلرمينوس اليسوعي . وألحّ عليه السيد فرنسيس إنغولي ، امين سر مجمع نشر الايمان مع رئيس المدرسة المارّ ذكره ، بان يضع مختصراً للتراطيق السرياني سهل المنال موجز العبارة ، ففعل . والقصد من ذلك كان منفعة الدارسين لان التأليف الذي كان قد صنفه البطريرك العلامة جرجس عميرة انحصرت فائدته بالمشرقيين ، لانه وضع باللاتينية مطوّلاً مُبرهناً . والكتاب مقدَّم للكردينال أكتافيوس باندیني ، محامي الطائفة المارونية ، اقراراً بجميله عليها وعلى المدرسة . وقد ذكر المؤلف في تمهيده انه استنجد بتراطيق البطريرك عميره ، على انه لانهماكه بدرس الفلسفة اضطر الى الايجاز اكثر مما يلزم وكان اذ ذاك شاباً ، وسترى انه لم يتصدَّ هذه الدرجة لاسباب نجهلها

ولما انجز تأليفه سلّمه الى الرؤساء ليأذنوا بطبعه ، فكان من جملة المراقبين المطران سركيس الرزي ، مطران دمشق ، رئيس لجنة تصحيح ترجمة الكتاب المقدس في رومية ، فاجازه الفاحصون وقرظه المطران الرزّي قال: «وجدت ان «هذا الكتاب» كثير المنفعة لاولاد طائفتنا وغيرهم الطالبين الدخول في علم

الفراماطيق واللغة السريانية . ولذلك نرغب من سائر طائفتنا وشعبنا الموارنة المباركين وسائر اخوتنا المسيحيين الذين عندهم يصل هذا الكتاب انهم يقتبلونه في حرص ويجتهدون على انتفاع بنيهم واولادهم الفراز من هذا الكتاب الذي صار لاجل منفعتهم وارشادهم في طريق العلم وافتهام كتب البيعة المقدسة ... وتم ذلك في تاريخ سنة ١٦٢٧.» واما ابراهيم الحاقلي فانه أودع مقدمته بعض ابيات سريانية فيها نصائح مفيدة لدارسي هذه اللغة.

ويبين لك قدر الحاقلي في ذلك الوقت ما قاله فيه المطران يوحنا الحصروني الدومنيكاني في شعر نظمه مدحاً لعلّامتنا وهاك ترجمته من السريانية :

« اشكر الله الذي عزّانا نحن الموارنة وقوّانا بالتعاليم المسيحية ، واللغات المختلفة والفراماطيق ، والمنطق ، والرياضيات والفلسفة ، واللاهوت ، التي زينك بها يا ابني ابراهيم الحاقلي . فليرفع الله شأنك في أمتنا وطائفتنا المارونيتين كما رفع شأن ابن القلاعي ابن طائفتك ، فتصير ينبوع ماء الحياة ، بواسطة عملك ، للعقول وللنفوس المفتداة بدم ابن الله سيدنا يسوع المسيح في هذا العالم.»

ثم جدّد بالطبع ، في السنة ذاتها ، وفي مطبعة نشر الايمان المقدس ، التعليم المسيحي الذي كان قد ألّفه الطوباوي بلرمينوس وترجمه المطران يوحنا الحصروني مطران طرابلس . وما لبث ان نشر ايضاً في المطبعة ذاتها خلاصة مبادئ اللغة العربية موضوعة في اللاتينية (١٦٢٨)

٣

الامير فخر الدين المعني وتلاميذ المدرسة المارونية الرومانية

وبينما كان ابراهيم الحاقلاني يهتم بتأليف الكتب وترجمتها ، كان الحبر الاعظم يسعى لتسهيل الخطط التي كان اسلافه قد استحسنوها وهي ان يجعلوا الامير فخر الدين حليفاً للدول النصرانية الاوربية ، ولاسيما اسبانية وايطالية ، ليجتذبوه الى الدين المسيحي ويؤيدوه في حكمه وامارته على لبنان ، ويستعينوا به على تخليص الاراضي المقدسة ، وتأمين زوّارها من الظلم والحبس والبلص.

واصل هذه المساعي يرتقي الى عهد كان الامير فخر الدين في فلورنسة ، منهزماً من امام السلطنة العثمانية ، فقضى فيها وفي جوارها خمس سنوات مجتهداً

في اكتساب صداقة الحبر الاعظم ، ذي السلطة الادبية العالية في الدول المسيحية ، وغراندوق توسكانا صاحب السفن الحربية التجارية المديدة. ثم ان عائلة بربريني الفلورنسية الاصل كانت تطمع في تأسيس امارة في فلسطين يولى عليها احد افرادها . وغراندوق توسكانا ينفي ان يحالف اميرًا بلاده غنية بالحبوب والحرير لا يكاد يكون لمركزها التجاري مثيل.

اما تلاميذ المدرسة المارونية ، والخازنيون مستشارو الامير ، فكانوا ينظرون بعين الارتياح الى تحسُّن العلائق بين الامير والباباوية والممالك المسيحية ، ويتمنون توطيدها معلقين النفس باعتناق الامير الدين المسيحي ، وتأسيس حكومة لبنانية وطنية مستقلة يتخلصون بفضلها من مظالم الاتراك.

وقد كتب البابا بولس الخامس الى البطريرك يوحنا مخلوف (١٦١٠) يوصيه بان يعنى بكسب صداقة فخر الدين ، حتى يكون اوفر امنًا في حمايته ، عساه يرتد الى النصرانية قال : «بما اننا سمعنا ان الامير فخر الدين امير الدروز في فلسطين ، رجل متفوّق بجيوشه وبأسه ، وانه عدو لدود للاتراك وانه يظهر ميلًا الى النصارى ويشملهم بعطفه الممتاز ، ويقرّ انه سليل الامراء قادة الحملة الصليبية على اورشليم فاننا فرحنا بذلك كثيرًا . ولذا نرغب ان تحافظوا على صداقته حتى تكونوا اوفر أمنًا في حمايته لكم لعلّ كره الاتراك له وصداقتكم له يحملانه على الكفر بمذهبه والاهتداء الى الايمان»

ويخيل اليّ ان كتابة المطران يوحنا بن قرياقوس الحصروني الى الامير فخر الدين تدلّ على هذه الآمال التي كان الامير يحييها بما كان يبدو منه من حسن الاستعداد نحو النصارى الذين نجوه من ايدي اعدائه واليك نصّ هذه الكتابة :

«سلام الله الحيّ القدوس محيي الاجساد والنفوس وسيدها الى قراءتها باحسن الطقوس تخص به حضرة سيدنا واميرنا وفرح قلوبنا وسرور طائفتنا المارونية الجليل القدر الامير فخر الدين المكرم والذي يعرضه على شريف علمكم عبدكم المعروف بخدمتكم المطران حنا الحصروني كاتب هذه العبودية فهو ان قريب جاييكم بمكاتيب كاتخيتكم مصطفى بن حسن شلبي مع اخبار عدة وان شاء الله تكونوا منصورين على اعدائكم والعاقبة للخير بعونة ينبوع المعونة الالهية سيدنا ومهدينا ومانح خلاصنا يسوع المسيح وشفاعة والدته العذراء مريم الدائمة بتوليتها التي لا صار قبلها ولا بعدها اية تشابهها باعمال الله الواحد . هذا الذي نسأله متضرعين الى مراحم الجزيلة يجعلكم باصل ويصيركم (اميرًا مسيحيًا) بطاعة البابا مؤيّدًا بالعزّ والنصر

الالهي بالمذهب المسيحي الـذي هو وحده مذهب الحق والنجـاة المنزل من السماء بواسطة الكلمة الازلية سيدنا يسوع المسيح لخلاص الراغبين الخلاص بالايمان المذكور.....» اه

وكان الامير فخرالدين يؤمل غراندوق توسكانا بما يطمع اليه ، ويتحبب الى تلاميذ المدرسة المارونية الذين خدموه اصدق خدمة . ولذلك طلب ، يوم كان في ايطالية ، من الحبر الاعظم ان يرسل بعضاً من هؤلاء التلاميذ الموجودين في رومية مع بعض اخصائه ليشدّدوا عزم مريديه في لبنان ويقفوا عن كثب على احوالـه . واستعان الامير بالغراندوق ليكتب للبابا طالباً منه ان يوصي الموارنة بان ينقادوا لفخر الدين ويؤيدوه ، ففعل الغراندوق بطيبة خاطر.

وقد توفق فخرالدين باقناع الغراندوق بملاءمة مقاصده ، واستمال البلاط الروماني . وراق الفكر لفرنشيسكو بربريني ، كردينال الكنيسة الرومانية المستشرق المعروف الطامح بابصاره الى الاراضي المقدسة الساعي جدّ السعي للتوفيق بين الـدول النصرانية في اوربـة وتوحيد كلمة الامراء الايطاليين واستمالتهم الى الانقياد للحبر الاعظم ، ليجعلوه الحكم الاعلى فيما بينهم.

اما المطران جرجس مارون الاهدني مطران قبرس ، فقد نجح في وضع مشروع معاهدة بين غراندوق توسكانا والامير فخر الدين ، غايتهـا امتلاك سورية ، وتوطيد ولاية فخر الدين على البلاد اللبنانية باسرها ، واعطاء قبرس للغراندوق وتسليم امارة القدس المتوي انشاؤها الى احد افراد عائلة بربريني. وكان لمشروع المعاهدة نسخة بين الوثائق التي كان قد جمعها شهيد الوطن الشيخ فيليب الخازن وأيناها عنده ولم نتوفق حتى اليوم الى ايجادها.

وقبل ذلك بمدة ، كان قـد أرسل المطران جرجس المذكور ، والمعلم منصور شلق العـاقوري مؤسس مدرسة راوتا يصحبهما المهندس العسكري نيكولتي من ترني ، لتفقد احوال لبنـان ودرس موارده بالرجال والغلات ، والتحقق مما كان يرويه فخر الدين الطالب ارسال حملة قوية تتجده للتغلب نهائياً على الدولة العثمانية. ولم يفوّض اليهم الّا بحث شؤون البـلاد ومقدرتها المعنوية والمادية ، وما يُرجى الحصول عليه فيها ، وما هي القوّات التي يمكن الاعتماد عليها . وقد أوصوا بان يقنعوا فخر الدين بارسال معتمد الى رومية للمفاوضة.

امـا احوال ايطالية فكانت قلقة لاختلاف امرائهـا ، وخصوصاً طائفتي الغراندوق وبربيني . وقد أُوعز الى الموفدين ان يحافظوا على حسن العلاقات مع الامير ، ويسعوا لتحسين التجارة بين البلدين . واما مشروع المعاهدة فلم تتم الموافقة عليه ، لان غراندوق توسكانا لم يرضَ بان يناصر عائلة بربيني ، كما انه استصعب الحملة على سورية البعيـدة عن امارته . اما فخر الدين فكان يلح بذلك ليغتنم فرصة انهماك الدولة العثمانية بحربها مع العجم ، على انه لم يتوفق.

ولما رأى الكردينال بربيني انه لن ينجح باقناع فرديناند الثاني ، اخـذ يسعى وحده لجعل علاقات تجارية مع الامير فخر الدين . فعمل البـابا على ان يوجه الى الامير (١٦٢٨) كتاباً يثني فيه عليه ويسأله ان يشمل النصارى بعطفه كسابق عادته

ولم تكن الدولـة الفرنسية لتنظر بعين الرضى الى جميـع هذه المخابرات والمساعي الرامية الى تقليل نفوذها في الشرق ، بل اخـذ وزراء الخارجية فيها يعاكسون تلك السياسة ليحتفظوا بسيطرة حكومتهم ، فعزّزوا الارساليـات الفرنسية ما امكن ، وعمدوا هم ايضاً الى تلاميذ المدرسة المارونيـة لترويج افكارهم ، فدعوا البارعين فيهم الى تدريس اللغات الشرقية في جامعة فرنسة (*Collège de France*) واجروا عليهم المرتبات ، وكلّفوهم ترجمة الكتب الى غير ذلك.

ومن المعلوم ان الدولة العثمانيـة كانت منعت تجـارة الحبوب بين سورية والبلاد النصرانية ، وكان الايطاليون يرغبون خاصةً في استيراد القمح الحوراني الصالح لاصطناع المعجون الايطالي المعروف بالمكروني ، فاتفقوا مع الامير فخر الدين على استيراد الحبوب من سورية . ولم يكن الامير ليحفل بمنع الدولة بل كان يرسل من الحبوب ما يتيسر له بيعه في ايطالية . وهكذا كانت المصلحة المشتركة العامل الاكبر على التجارة ، وقد أرسل البارون ده لاغرا ، نديم كفيلة الدوقية ، لاجل هذه الغاية وسُمي الفارس ده ڤرازانو قنصلاً ليسهر على المصالح التجارية ، وكان عالماً باللغة العربية وله المام بعادات البلاد.

(للمقال صلة)